نسقية الكتابة وتشكيل المتخيل

د/ بلخير عقاب
جامعة المسيلة

الملخص :

يتلخص بحثي في تحديد نمط الكتابة التي تتجاوز حدود النظرة الآنية لعملها، وتنظر إليها نظرة أحادية، في حين أنها تحمل تاريخها وكلها داخل منظومة كلامية قادمة من عصور سابقة، وأما معالجاتها فتكمن في مستوى فهمها وكيفية الدخول إلى محتوياتها المعرفية، ومن ثم تحقيق شروط الفهم والتأويل الصحيح.

هذا ناهيك أن الكتابة تشكل قوانينها وتبسط حدودها وتعبر عن نفسها ووجودها، داخل محيط ثقافي واجتماعي تعبر عنه وتنتظر قارئا يتفاعل معها ويرهن نفسها داخل سلطتها المفترضة، من أجل إضافة وفهم ، ضبط حدود مثاقفة، وجهات نظر وتحفيز لفعل جديد من الكتابة.

هكذا نجد أن التطور والتغيير الحاصل لمستوى الكتابة عبر العصور، جاء وفق هذا الفهم الدقيق لمستويات الكتابة وتعبيرها عن عصرها وتفاعلها داخل مجتمعات وأفكار متعددة المشارب والاتجاهات، ومن ثم تحفزت الكتابة لأن تظهر بشكل يربط الحلقات ويضيف عند أجيال مختلفة(النص الإبداعي كأحسن مثال على ذلك).

ومن جهة أخرى الكتابة هي حاصل الجهد البشري في كليته، ومنه فهي المعبر المتجدد عنه بعكس التاريخ الذي يؤرخ لفعلها، لكنه ينحصر في إطار زمني لا يتعداه، إلا إذا كان واعيا لقراءة نشطة وفاعلة تستخلص وتمحّص وتضيف.

Résumé :

systematic of the writing and the forming of the imagination

My these boils down to a search to determine the style of writing that go beyond the limits of the partial view of their work, while wearing his history in the system of words from previous periods, and understand them in the way of accessing the knowledge of their content, and then get the understanding, and correct interpretation of its terms.

Moreover, writing it forms and requires its laws, and its conditions is deposited, it is expressed more in the social and cultural status thanks to lector, where it fits and starts in its presumed authority to added is determined, acculturated, have opinions all in activating new acts of writing.

Thus, we find that the development and evolution of writing through the ages, it reaches this distinct understanding of levels of writing, and its mode expressions of his age, and also its interaction communities whose ideas and trends are different

That's when it is activated in a way it has become a means of input and added, this has concerned various generations. (Creative text for best example of this).

On the other hand, writing is a cumulative of humanitarian progress in its entirety, it is his experience and continued existence is beyond the historical facts, cycles and chronic, yet the historical reading is not aware of facts writing if it is caused by a vision that means, examines and adds.

هناك حاجز يقع بين الكلام والكتابة1 فالكتابة تقتل الكلام، لكنها تحافظ على خصائص خاصة به، تحيله من التفكك إلى التنظيم المنطقي ،فتكون لنا تراكبات مضاعفة:

أولا: نظام التشكلن. ثانيا: نظام الدلالة. ثالثا: النظام المنطقي2الأول يحيلنا إلى إستراتيجية التراكب لهذه الكتل من الجمل والصيغ والهندسات(الخطوط الزمكانية ثم هذه الخصوصية التي يمتاز بها شكل نصاني).

أما الثاني فيحيلنا إلى نظام هذا التراكب، من حيث علاقة الوحدات فيما بينها وكيف ترتبط دون إعارة اعتبار للتفكك الذي كان يلاحظ أثناء الكلام، أما فيما يتعلق بالثالثة، هي تلك العلاقات المنطقية التي نحاول من خلالها أن نحدد صيغ التراكب والقوانين التي تتحكم في الخطاب ومحاولة تفكيك الجمل وتحديد سمات خاصة بالنص عموما، فتلاحظ حياة المفردة التي تأخذ موقعا خاصا بها وفق علاقة تبادل وعلاقة تداخل، أو علاقة تمايز خاصة بها.الكلمة التي تصبح محركا لباقي الخطاب، ثم الهندسة وهي الترسيمة البصرية التي تطرح تصورا جديدا يقرب صورة الكلام إلى الكتابة ويغري بمحاولة إرجاع هذا الكلام إلى طبيعته.

هذه التنظيمات هي طرق لتفكيك الكتابة على اعتبار أن النص يحمل الميزات التالية:

1-طابعه المجازي المكثف جدا.

2-صفة الغياب3 التي تسمه وتجعله ينتج حركات ثقافية متعددة ويحيل إلى مرجعية مختلفة.

3-علاقات التداخل بين الجمل وعدم تحديد خطاب صريح بينها.

4-هناك مؤشرات خاصة جدا وفق ترتيب منطقي وتحيل كل مرة إلى أصل الخطاب.

5-تذبذب الخطاب بين المباشر وغير المباشر بما يدل على تداخل بين طبيعة الكلام والكتابة نفسها، ولذا علينا أن نرى الكتابة من وجهين:

الوجه الأول: من حيث كونها دليلا خطيا.

الوجه الثاني:من حيث كونها خطابا داخليا.

بالنسبة للوجه الأول فهو يخص البنية السطحية(المستويات المختلفة، صوتية، تركيبية، معجمية..).

أما الوجه الثاني فيستلزم البحث فيه من خلال الإحالات التي نتحصل عليها من خلال دراستنا للبنية السطحية، فالنص يشبه تلك الحسناء التي تعري عن نقابها ولا تكشف صورتها كلية، غير أن مستوى من ينظر إليها هو مدار الموضوع، فالعين المجردة لا تنظر من العين الداخلية، وهكذا نحن نسبغ المزيد من الجمال بما نحمله من قيمة خاصة له.

إن العالم هو ما نحمله من قيم وهو ينخلق من خلالها.

ولهذا يكون النص :

-قابلا لتأويلات مختلفة.

-النص لا يأخذ خصوصيته إلا من خلال قارئه الذي يحيله إلى تصور مفهومي خاص به.

-يمكن أن يتحول النص إلى طبيعة تاريخية وينعزل عن تموقعه داخل التبني الثقافي،أو يتفاعل داخل المحيط إذا كان قويا واستطاع أن يتفكك داخل النسيج المجتمعي،وذلك بمعرفة خلفياته لإعادة استثماره (4).

هنا يمكن عرض عدة تصورات عن القراءة التراثية إن صح هذا الزعم:كيف أقرأ التراث ؟ ما هي المنطلقات الفكرية التي جعلت عبد القاهر الجرجاني يكتب دلائل الإعجاز مثلا؟ هل هذا الكتاب يدخل في باب البلاغة الصرف ،أم هو كتاب ذو طبيعة خاصة؟ما هو مصدر فكره..؟

هنا يجب أن أدخل في تحديد مفهومي جدّ هامّ يتعلق بقراءة التراث وفق نظرة حديثة أو بالأصح كيف أكون حديثا تراثيا وكيف يمكن أن لا تنطرح كلمة تراث، بل يكون هناك تحقيق وتوافق لما هو تراثي ولما هو حداثي.

إن هذا الموضوع يتطلب:

1-منهجا مكافئا لخصوصية النص التراثي وحتما سيأتيه هذا المنهج من داخله حسب طروحات البعض.

2-تعديل وتوفيق، وهذا الدرس المنهجي فيه الكثير من المغالطة، لكون أننا نقوم بأدوات إجرائية هي في أصلها إجراءات تقنية موجودة أساسا لدراسة النص الحديث.

مسألة القراءة أو الموافقة تتحدد باعتبارات:

1-أن النص التراثي تفاعل مع الثقافات المختلفة فارسية، يونانية، رومانية.. لأنها كانت تمثل ثقافات معرفية استطاع المسلمون توفيقها مع النص القرآني أو الرؤية الدينية وأفلحوا في ذلك، لكون أن هذا التوافق لقي انسجامه مع تصور معادل، بمعنى الفكر الديني الإسلامي هو فكر معرفي تلاقي مع فكر معرفي آخر من ثقافات مختلفة، فأضفى عليها بعد الدين المنظم، فنمت هذه التصورات في رؤية نسقية لا غبار عليها ، بل إنها حررت العقل وجعلته ينظر إلى معرفيات لم يكن مطلعا عليها وخدمته في مجالات دراسته، وهي مجمل الحقول التي تسم تراثنا (معرفية، لغوية، دينية).

2-غير أن القطيعة جاءت عندما انعدمت هذه الطرائق وجاءت منهجيات طارئة، ركزت نظرتها حول المفهوم الإحيائي بدل المفهوم التوافقي الذي كان صالحا لإكمال مسيرة عمل التراث وتفاعله.

ومفهوم الإحياء يعني إرجاع والإرجاع هو فعل لا ينسجم إلا إذا كان هناك انسجام داخلي في تصور المُرجع، وهو يعني أيضا صحوة تجعل الذات تتنبه لجملة عوامل فقدتها ولا بد من إحياء عرف قديم يقوم ويعدل ما افتقد، وهذا طرح فيه الكثير من عدم الإصابة، لكونه ينفي واقعا ليفرض واقعا، أو لنقل إنه يرى أن القديم أفضل من الحديث، وهذا عمل ركوني بدل أن يكون المفهوم تصحيح وتعديل المسارات وتوفيقها برؤية جديدة لما هو قديم.

أعتقد أن الطرح المنهجي لهذه المسألة سوف لن يكون طرحا تقنيا بالمعنى السائد، وكما فعله الكثير من الدارسين في محاولتهم قراءة التراث بأدوات التفكيكية مرة وبأدوات السيميائية مرة أخرى.

هناك ولا شك عدة اعتبارات:

1-خصوصية التراث.

2-البعد المعرفي غير التقني للتراث بمعنى أنه لا يُفهم التراث إلا وفق بنية معرفية موافقة لثقافات مختلفة، وطوِّعت لنظرة دينية كانت.

متراتبة في وقتها، لكن البنية المعرفية الحالية لا تملك أدوات معرفية مجردة، وإنما أدوات تعزل البنية المتكاملة للعقل لتجعله مجزأ، وتدرس موقع الفرد وهو يتفاعل داخل محيطه إلى غير ذلك .وهذا ما لا ينسجم مع الدراسات الإحيائية التي هدفها إعادة مسار تراثي قديم لوضع حديث .

هنا نقول إن المعرفية الأوربية، سيما المعرفية الحديثة التي نتجت بعد الحرب العالمية الثانية كنزعة أكثر رسوخا وتجسيدا للإنسان أو للدال المفرد داخل بنيته النسقية، وهو المجتمع الأوربي أو ما يعادل النص، والتي انصب اهتمامها حول البحث عن ابستمية خاصة، تميز المجتمع الأوربي، سيما عند ميشال فوكو أو البحث عن مفهوم تفكك الدال ومخالفته، ومحاولة قلب طرائق الكتابة عند دريدا مرورا بأغلب الاتجاهات اللسانية وأخصها السيميائية .

هذه الحقول خرجت عن دائرة البنية المعرفية الموافقة، وأصبحت تبحث عن بنية معرفية مخالفة.

-مفهوم المخالفة هو البحث عن بنية معرفية، تنقض بنية العقل وتعري عن تاريخية الدال وتؤسس لمتصورات بديلة.

كيف تتوافق قراءة التراث مع هذه الأنساق المخالفة، طبعا لا يمكن ذلك وبالتالي هناك خلط من جهتين:

1-الذين يقولون أنه تجب قراءة التراث بأدوات حديثة لجعله منسجما مع الحداثة.

2-الذين يقولون تجب قراءة التراث من خصوصياته نفسها، وهي البعد الديني متضمنا في البعد المعرفي.

إن كلا الفريقين ينقضان الحقائق لكون أن المنهجيتين تتخالفان، ولا يمكن أن تتآلفا بكلا العملين، لا يمكن أن نضع التراث معادلا لمفاهيم إبستمية حديثة، ولا يمكن أن نطوع التراث لنظرة افتقدت لبنيتها المعرفية في أذهان المسلمين الحديثين.

لأن القصد من قراءة التراث هو:

1-وضعه داخل نسق معرفي متراتب ومتواصل وهي دعوة حضارية ترسخها اتجاهات مختلفة.

2-قراءة تصحيحية أو تقريبية لما هو معروف لدينا من علوم جديدة.

3- محاولة البحث اللاهث وراء قيم تعيد إلينا الثقة في أنفسنا وتجعلنا في مواجهة مع التجدد الفكري المتصاعد على كل المستويات.

أعتقد أن مفهوم المزاوجة سيكون المفهوم الأكثر تدقيقا في كل هذا، ويتم بمزاوجة معرفيتنا التراثية بما هو موجود، فتتم حالة تعادل في مستوى دراساتنا وليس تفككا معرفيا، يحدث شرخا مستديما ويفقدنا حالة الالتصاق المعرفي لتراثنا الغائب وراء منهجياتنا القاصرة.

غير أننا في هذا المبحث سنكتفي بالإشارة لهذه النقاط الهامة، على أن تكون هناك دراسات متكاملة، تحاول قدر الجهد أن تعادل المفاهيم، وأن تضع وضعا موافقا، تتراتب فيه أسس البناء .

تموقع الكتابة:

إن الكلام المكتوب لا يمكن كشف ضوابطه؛ لأنه كلام صامت لا يتحرك إلا من خلال ذهنية القارئ الإستراتيجي المهيأ سلفا لتناولها، فما عليه إلا الارتكاز على قدراته الخاصة، من أجل فكّ التراكبات النصية، بمعنى القيام بحفرية معرفية من داخل المقول(المكتوب) نفسه، وهذا لا يتم إلا عن طريق:

-عدم الانخداع بهذه التراتبات المعجمية التي يظهر أنها تدل على خطاب أحادي.

-كل مقول يخضع لسلسلة كلامية، يشكل الجزء الأكبر منها فكر الكاتب ومنطلقاته التي لا تظهر ، وبهذا يأخذ النص حصانته، ويصبح منتجا لأفعال ثقافية خاصة النص يحيل إليها والقارئ يحيلها إلى مفاهيم تتصل بالخط الزماني والمكاني للكاتب، أي الظروف والملابسات التي أنتجت النص، بمعنى البعد التاريخي (الفترة الزمنية التي كتب فيها العمل) والشرط الاجتماعي والثقافي السائد والذي أنتج النص من خلاله(البعد المكاني).

والواقــع أننا نتعامــل بالدوال تعامــلا أحاديا، فإذا قلنا كلاما ننظر إليه من خلال الغرض الذي يؤديه وحسب(5).

هذا على مستوى الاستعمال والتداول، أما على مستوى المعرفة، فإن فكرنا المدرسي يربط علاقات نحوية(كلامية) لا تتعدى المعنى الواحد.

إن التفكيك المقصود هو إعادة إرجاع، هو إخراج حفريات معرفية من نصوص فقدت تاريخها العضوي واستنت قوانين وحرفت عن مسارها الطبيعي، إنها إستراتيجية المعرفة حين تتلاقى مع المعرفة، نحاول حينئذ أن ننتهج مسارا آخر، رغم ما يبدو من وضوح على النسق العام للنص المشاهد(المقروء)، إنها إعادة تراتب الدوال عن طريق توزيعها وإعطائها بعدها الغائب، هكذا يكون الإرجاع توليدا أو تفجيرا لنصوص جديدة.

فقد دأبت الكتابات السابقة على البحث عن المعنى الأحادي للدوال، دون الاستفسار أو التمييز بين الدوال في علاقاتها التي تقيمها مع كل نص، وهذا يعني أن منطق المكتوب يموه هذا الخطاب، وأن فكرنا خاضع إليه أتم الخضوع، وأن المقول أو الكلام أوسع مجالا من المكتوب، فليس كل ما يقال يكتب ومن هنا تتمحور إستراتيجية التأويل.

إن الكتابة تشكل فعلا لغويا محكوما بقوانين الخطاب، ويتعدد خطابها بتعدد الإحالات التي تحيل إليها أثناء القراءة.

فهي تؤرخ للفعل اللغوي وهي غالبا ما تكون مهيأة قصد التسجيل ومعدة مسبقا، لذا تكون أكثر تدقيقا وأكثر تمحيصا.

غير أن الصعوبة المتوخاة هي في كونها تخفي عبر ترسيمة النص مواقع الخطابات الأكثر أهمية، ما يتطلب اللجوء إلى اللسانيات اللغوية لمسك هذه المتاهات الخطابية داخل الحوارات، وحسب مستوى المتحدثين وسياق الحال ومقاصد الكاتب.

إن الكتابة هي سلطة، نحن نبحث دائما عن وضع معرفي للكتابة، من حيث إنها تحمل مضامينها داخل تصور أحادي الجانب، ولكنه متعدد الرؤى بالنظر إلى الوضع المعرفي الذي توجد داخله، من حيث كونها تحمل تاريخ صاحبها، الشروط المعرفية التي تتعلق بالعرف، المنطلق النفسي والاجتماعي.

إنها تتموضع داخل أنساق معرفية مختلفة، تعاقبت طيلة سنين طويلة من العطاء، تترافد داخل أنماط مختلفة، الكتب بالدرجة الأولى، الوسائل المعرفية المختلفة، ثم التصور الأحادي الجانب(الكاتب)، ثم المحيط المعرفي، نقاشات، دوائر معرفية مختلفة.

لكن الكتابة من منظور آخر، تلقي الفكر داخل مراهنات قولية مختلفة، فهي تفرض شرطا معرفيا تموضع داخل الورقة، ويفترض أن هذا التموضع يفرض نسقا معينا من

المتابعة لاستكمال شرط الكتابة وهو القراءة الجيدة لها، ليس للحكم عليها فقط، بل لمتابعة مسارها داخل تاريخيتها التي أسسها صاحبها.

إننا حيال وضع تاريخي، فيه نلقى السلطة المفترضة والتي تجعل الإنسان يؤسس لوضع معرفي جديد وهو يقابل موضوعا معينا يشده إليه اهتمامه الخاص، بمثاقفته للنص بمعنى إقامة حوار داخلي صامت يتأسس من منطلقين؛ المنطلق الأول الوضع الثقافي للقارئ، والمنطلق الثاني ما يمكن أن يحيله النص من تصورات تغري القارئ بإضافة معرفة أخرى أو استغلال المعارف السابقة في وضع النص ضمن خانة خاصة.

هذا العمل هو إعادة تشاكل بين معرفة مسبقة ومعرفة جديدة، قد تؤسس لجملة معارف مستجدة، أو تدخل ضمن خانة المعارف المألوفة التي تضع صاحب النص ضمن خانة معرفية خاصة.

لعل الكتابة من هذا الجانب، تمثل بؤرة الالتقاء المعرفي الهادف دوما إلى تعرية تاريخية خاصة بالكاتب، ثم ينطلق بعدها النص إلى جملة من الشروط المعرفية الأخرى التي تحيله إلى مرجعياته المختلفة، هنا ينطلق النص ضمن مستويات مختلفة:

1-إنتاجيته.

2-تعددية المعنى الذي يحيل إليه.

3-تناصه مع جملة من المعارف المختلفة.

4-علميته في جملة القوانين التي من خلالها يتخذ القارئ وضعيات مختلفة لفهمه وتأويله.

إلى غير ذلك من المستويات الأخرى مثل وضعية القارئ الاجتماعية والنفسية، وضعية النص من حيث المضمون واقترابه من العصر الذي يتعايش معه أو ابتعاده عن هذه الوضعية إلى آخره.

إن الكتابة تصمد في وجه المتغيرات وهي تتنقل من عصر إلى آخر، لتؤسس لأوضاع مختلفة على حسب السياق التاريخي الذي تتواجد فيه، فقد شغلت مؤلفات المعري مثلا العصبة الأدبية، لأن معرفية هذه الفترة انصبت حول البعد الإنساني المنطلق من انتقاد المجتمع وتعرية واقعه، ثم المعانات المنجرة عن هذه المعايشة الحالّية.

وصمدت مؤلفات شكسبير أمام المتغيرات الاجتماعية، لأنها شغلت موضوعات إنسانية مختلفة إلى غير ذلك من النصوص.

كما أن الكتابة تمثل حوارا إنسانيا في كونها تقرأ وتمارس كنشاط فعلي داخل المجتمعات المتعددة.

لكننا لسنا هنا بصدد تحديد الكتابة من منطلق الحفر عن تاريخيتها الخاصة، فهي ميزة المجتمع المؤسس من جهة، وهي حوصلة معرفية ضرورية وأكيدة تؤرخ للنص وتشمله ضمن تراث معرفي عام.

لكنها من جهة أخرى تلغي تاريخيتها الخاصة، وأعني بها شروط تأسيسها والفعل الكلامي المنتج من طرف صاحبها وهو يعايش وضعا تاريخيا واجتماعيا معينا.

كما أننا نقحم التاريخ داخل الكتابة إذا نظرنا إلى أن الكتابة هي خاصة بمن يحسن التأليف.هنا تصبح الكتابة مختصة، بينما التاريخ يهدف إلى ما هو أعم من الكتابة وهو الوضع الاجتماعي الخارج نطاق الكتابة، لكننا من جهة أخرى نصطدم مع الكتابة مرة أخرى لأن المؤرخ نفسه ينطلق منها في إحياء هذه الأوضاع الاجتماعية، وبالتالي فإن سلطويتها تأخذ أبعادا مختلفة تجعل من القارئ حاملا لموروث كبير، من أجل فهمها واستيعابها، ومن ثم وضعها ضمن منظورها الجدير بها.

هذه السلطوية تمثل بؤرة الصراع الدائر داخل محيط الكتابة، من أنه حوار تاريخي حقيقي ومراجعة مهمة من أجل فهم أوفى للحاضر السائد.

لقد تخالفت الكتابة لدينا عندما تحركت في مرحلة التدوين حيث أصبحت هي السيدة، بدلا من المسموع(الرواية)، ومذ ذاك الحين ترسخت كفكر أحادي عازل لما هو خارجها، فأفقدت الكتابة بذلك الرؤية الواضحة للمجتمع العربي في تداولاته المختلفة، ولم تحتفظ إلا بمعالم معينة لبيئات معينة، أما بعض البيئات فلم تظهر معالمها لا في ما هو مأثور عنها ولا فيما هو مشهود منها.

ثم إن سلطوية الكتابة تأخذ بعدا آخر من حيث إنه لا يمكن الاستغناء عنها، لأنها تفرض شرطا مهما في التأدية المعرفية وهو التركيز وتكثيف أدواتها، على العكس من حوار متلفز أو محاضرة شفهية.. وبالتالي فإنها من هذا الجانب أيضا تفرض متصورا موثوقا في الحكم والتقييم.

لقد دأبت النظريات السابقة على تحفيز الفكر الإنساني بجملة من العلوم أثرت الحقول المعرفية المختلفة، وهدفها دوما البحث عن معرفة متكاملة، تعيد للفكر الإنساني سلوكاته الرياضية المتناسقة مع الكون والحياة والإنسان، وكان هذا طموح الكتابة الإبداعية في مجالاتها الأكثر ثراء من حيث التجربة.

هنا أشرفت الكتابة على خروقات عرفية هائلة، كسرت جدار التوازي الشعري وانفعالية اللحظة، من أجل تحريك البيت إلى مكان يستشرف واجهته من زوايا مختلفة.

وكان هذا الوضع بداية المنطلق نحو تكسير الحواجز، وتصحيح اللغة المتراتبة داخل الفكر العربي الأحادي.

غير أن الكتابة قد تكون عرضة لمواجهات رافضة، تعلن عن موتها قبل سقوطها.

إن الإشكالية هنا لا تتعلق بالشرخ والتكسير، ولكن باللغة في حدّ ذاتها، التصحيح اللغوي ليس هو فعل الاستشراف الغيبي، ولكنه فهم للأسس و المنطلقات، تحريك وضعية النص يعني تحريك الأسس والمنطلقات، وإيجاد فعل كتابة، بمعنى إيجاد رؤية متكاملة لها، وهنا اصطدم النقد أمام مطبّات منهجية في كيفية التعامل مع هذه المفاهيم الموغلة في النظرية، والموغلة في جانب آخر في التعمية النصية.

ازدواجية الطرح وأحادية التصور المنعزل عن توجه نقدي سائد.

الكتابة من وجهة أخرى هي المخالفة للمألوف، مخالفة المواضع التي تسكن فيها وتتخذها إطارا ثقافيا يعبر عن:

-خصوصية تجربة.

-يعبر عن سجل تاريخي ينضاف إلى الجهد الإنساني عامة.

-يتخذ لنفسه مشروعية التناول بمعنى القراءة المؤولة.

-ومن ثم يدخل في حيز حصانة ما، حصانة الرأي وتاريخية البناء، أي النص الذي لا يمكن أن ينضاف إليه شيء من خارجه.

مشروعية الكتابة من زاوية أخرى، أنها تجسد الصوت داخل شكل خطي وبذلك تأخذ لها بعدا تسجيليا، حواريا، خاصا.

كما أن دلائلية الكتابة، هي في كونها علامـــــات أو سلسلة دلائل لا ترتبط بنسق ثنائي دال/ مدلول، وإنما ترتبط بنسق دلائلي أو بمجموعة أنساق، يأخذ كل نسق صفته

وصورته من خلال فعل إنتاجي يحيله إلى مصادره، وهذه المصادر تمثل مثاقفة حقيقية لمرجعيات الكاتب والتي تشمل المرجعيات الثقافية والاجتماعية والنفسية، بمعنى تجسد الكتابة نشاطا ذهنيا، يشمل أسطورة الكاتب أو كل تفاعلاته البشرية التي تمثل الجهد الإنساني السائر عبر تاريخية الزمان والمكان.

إن الكتابة هي تواضع واتفاق حول طرائق الممارسة التي تخوضها داخل محيطها اللغوي، ولكنها تتجاوز أحادية الدال، لتتعداه إلى نشاط لغوي دائم التحرك والتثوير، ومن هنا فإن الدراسات البنيوية السابقة تنظر للكتابة على أنها داخل نظام نسقي غير مخالف، إن التخالف يعني أن الدال يتعدد داخل نظام محدد هو النص، وهو نسق يظهر أنه متكامل في بنائه ولكنه في الوقت نفسه يشكل مجموعة دوائر ترمي لأبعاد مختلفة، فنحن لا يمكن أن ننتج من نص واحد محمولا كلاميا واحدا، ونتخذ النص على أنه مغلق، ولكننا نأخذه على أنه مجموعة علاقات دلالية، كل دلالة لها ما يخالفها، وأن هذا اللاتناسق داخل الكلمات، هو ذلك التناسق المنطقي النحوي، وهو الذي يولد اللامألوف ويفرض جملة من التأويلات، كل تأويل يخص دالا بعينه، حتى يكون هناك إرجاع لطبيعة الكلام في أصله.

إن مبدأ التخالف هو محاولة تفسير السياقات الكلامية، وفق منظور تخالفي هائل بين الكلمات، ويتجلى هذا في النصوص الإبداعية خصوصا.

هذا الانشطار اللغوي هو انفتاح للحظة وعي دفينة، حيث تتوالد لغة خاصة ليس لها علاقة بلغة الواقع العيني، وهي تتفاعل وسط جو دلائلي متعدد وغير متناسق بمعنى غير مألوف.

ومن هنا فإن علاقة الدال بالمدلول –حسب رأي دي سوسير– هي علاقة أحادية على مستوى الدال وحده، أما النظام أو النسق الذي يدخل فيه الدال، فهو ذاك اللاتوافق والذي يعبر عنه بالتوزيع (القيمة)، إنما هو تشاكل معنوي داخل تخالف كلامي، ومن هنا فإن الكتابة تتشكل على مستويين:

–المستوى الأول منطقي، وهو بنائية الجملة في حد ذاتها صيغها الإسنادية بمعنى اللوجوس أو المنطق الذهني الذي يؤالف الكلام داخل بنية معرفية تبليغية.

–المستوى الثاني، تنافري تخالفي وهو اللاتآلف بين الكلمات وتآلف المعنى، لأن البنية الحاصلة أو النسق الحاصل هو الدلالة التي يربطها التواضع المرجعي حول الكلمات:

- الدلالة المعجمية للكلمة منفردة.
- الدلالة الإيحائية للكلمة في علاقتها بالكلمات الأخرى.

ثم إن الكتابة هي خطاب، ومعنى الخطاب هو مقصديات الكلام التي يحيلها الفكر إلى مجموعة مفاهيم، حيث تتحول الكتابة إلى مجموعة تفكيكات، كل تفكيك يحيل الكلمة إلى مرجعها داخل سياق اجتماعي وثقافي معين.

ومن هنا فإن الكتابة هي خطية الدال مقرونة بصورة الفكر المرتبط بمرجعية خاصة داخل سياق أو وضع إنساني خاص.

هوامش

(1)ينظر جوليا كريستيفا ،علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال، المغرب، 1991، ط الأولى، ص 74.

(2) يراعي غريماس مثل هذا التحديد الذي يحصره في البنية العميقة والبنية السطحية، وقد استفاد في ذلك بأعمال هيالمسليف، فيرى غريماس أن الشكل له دلالته مثل المحتوى تماما، وبإجمال يمكن القول بأن التراكبات السيميائية يمكن أن تشكل شكلها،بينما مجموع(الأقطاب) السيميائية تشكل محتواها، ومن هنا فإن كل تحليل يجب أن يرتكز على الشكل ومحتواه، رغم تخالف المنطق وتداخل مجال الدراسة.ينظر: A J Greimas : Sémantique structurale, éd, Larousse, Paris , 1966,p26

(3) سجلات الكلام حسب تودوروف تتمثل في:1-طبيعة سجل ما،التي نسميها في الاستعمال اليومي"الملموسة" أو "المجردة" 2-هناك علاقة حضورية نميزها في المجاز وعلاقات غيابية.3-وجود أو غياب أو إحالة على خطاب(خطاب أحادي القيمة)4-ذاتية اللغة (ونجعلها مقابل موضوعيتها).ينظر : تزفيطان تودوروف : الشعرية،ترجمة : شكري المبخوت ورجاء سلامة، دار توبقال.الدار البيضاء، 1990، ط الثانية، ص 38-43.

(4) تجدر الإشارة هنا إلى عمل جاك دريدا حيث ينشد من خلاله ما هو خارج النص hors-texte ،إن النص تتضاعف كتابته،ولا وجود لنص حقيقي اكتمل إنجازه، فالنص هو مقدمة غير مكتملة، لا تلبث أن تتحول صورتها من عصر إلى آخر (الإشارة هنا إلى حياة النص ومفهوم القراءة حسب نظرية دريدا). هذا ما يخيب التمثل الفلسفي(المعرفي) للنص، النص يخالف حدوده ويعارضها، وعلى هذا فإن فضاء الكتابة لا يثور التعدد النصاني وحسب، ولكنه يتعلق أيضا بالتضاد المستمر له. ينظر:

Jacque derrida : la dessimination, ser, point, ED: du seuil, Paris, 1972, P 57.

(5)يرى جاك لاكان Jacque Lacan أن الذوات الإنسانية تدخل نسقا موجودا من قبل الدوال التي لا تتحدد معانيها إلا داخل نسق لغوي، فدخولنا في اللغة هو الذي يمكننا من أن نجد وضعا للذوات داخل علاقتي (ذكر/أنثى/أب/أم) ويحكم اللاوعي هذه العملية والمراحل التي تسبقها. ومجمل القول، إن التحليل النفسي عنده هو البلاغة العلمية للاشعور. ينظر: رامان سلدن:النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة:جابر عصفور، دار الفكر، القاهرة،ط الأولى، ص،144.